التّنغيم والنّبر في التـــــــراث

د. عبد القادر بن فطة، جامعة معسكر ، الجزائر.

ملخّـــــص

يمثّل النبر والتنغيم قمّة الظواهر الصوتية التي تكسوا المنطوق ، وقد توقّف عندهما أهل اللّغة والإقراء واكتشفوا حقيقتهما النّطقية والجمالية ، وأظهروا أهميتهما في التّحليل اللغوي ، فهما يفرقان بتن أجناس الجمل والكلمات والوظائف الدّلالية . ومادام أنّهما يمثّلان جانباً من الأداء الصوتي ، فهما متطلّبان في قراءة القرآن من أجل فهم تراكيبه الدقيقة التي تكشف عن مظاهر إعجازه . فهو يتّجه بهما إلي رسم العلاقة بينه والقارئ في بيان كيفية تلاوته ، وآدائه السليم .

Abstract

Intonation and stress are considered as two important elements that characterizes speech. Linguists have dealt with them to discover their aesthetic sides, therefore have focused on articulatory parts using limited norms where their importance appears in the linguistic analysis, because they distinguish between sentences, words and their semantic functions. And as long as they are related to rhythm, Quran uses them in its comprehensive structure and phonetic side which displays its miracles and on one hand and displays the relation between the reader and Quran in terms of reciting and accurate performance.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التنغيم و النّبر من مظاهر الإعجاز القرآني، تحلّى بهما التراث اللغوي فقد توقّف عندهما أهل اللّغة والإقراء لاكتشاف حقيقتهما الجمالية مادام القرآن يوظّف كلمات بصيغة بديعة تكشف عن أسرار الأسلوب القرآني ،والاستعمال اللغوي الذي يعكس عبقرية العرب . فهو يتّجه بهذين الظاهرتين إلى رسم العلاقة بين المتكلّم و المتلقّي . فالتّنوع اللغوي في توظيفهما يكون على مستوى الأداء.

فاللغويون وقفوا عند هما لإبراز النسيج اللغوي،و الصيغة التي تمّت عليه ،فطبيعة اللغة العربية في قمّة انسجام الأصوات والكلمات.

إنّ طابع هذين الظاهرتين الصوتيتين أحدثتا وحدة جمالية ،و أبعدتا الغموض عن المعاني لذا تأثّر بهما القراء و اللغويون فوجدوا أنفسهم أمام نوع عجيب من الأداء الصوتي فأبانوا للأسماع ما يكتنزان من تحكّم فريد ومتوازن بين الأبعاد الدلالية و الوظائف الجمالية .

أ_ التّنغيـــــم :

لقد تنبّه القدامى إلى ظاهرة الارتفاع والانخفاض في الصوت في طريقة الأداء والنطق ،وما تحتويه من نغمات مختلفة ،والأثر الذي تحدثه على المتلقي ،وتتقيّد بضوابط تتحكّم في النطق السليم وهذا ما يعرف بالتنغيم، فهو عنصر جوهري من عناصر الأداء به تكون اللغة ملتزمة بالنظام اللغوي المتعارف عليه. وقد استثمر أهل اللغة أهمية هذه الظاهرة في إزالة اللّبس عن مقاصد الجمل، وتوجيه المعاني، وتحقيق انسجام الأصوات في الطول والقصر.

فالتنغيم لا يقف عند حدود الارتفاع و الانخفاض، و لكنّه يشمل كل ما يتعلق بالنطق من وسائـــل الأداء كالنبر، والسكت والوقف (فالصوت المنبور أطول منه حين يكون غير منبور وانسجام الكلام في نغماته يتطلب الصوت والإبطاء به يترك في لهجة المتكلم أثر أجنبيا عن اللغة ينفر منه أبناؤها.) [1]

فحسن الأداء يحقّق التنغيم فهو يجسّد ملامح الاستفهام و الإخبار و التعجب وغيرهم فتكون تلقائيا غير متصنّع فيها،وهذا ما وقف عنده العلماء،وأدركوا الغاية وهو أن الأداء يعزّز المعنى دون مبالغة .لكن الحقيقة الأخرى هي أن موضوعات النص القرآني لا يمكن قراءتها بتنغيم واحد إنّما يقرأ القرآن على منازله، فمواطن التخويف محددة بألفاظها و كذلك مواقع التعظيم.

وقد وضع أهل القراءة مصطلحات مرتبطة بالتنغيم والمقصد هو الدقّة في الأداء و التأثير في الهيئة التنغيمية، كالوقف هو قطع الصوت للتنفس بغية استئناف القراءة ،والتفخيم هو سمن الحرف في المخرج و هو خاص بحروف الاستعلاء.أمّا الترقيق فهو تضعيف الحرف وهو مرتبط بحروف الاستفال.

ولم يفت علماء النحو علاقة النحو بالتنغيم في تفسير بعض المسائل الإعرابية المرتبطة بالتأليف الصوتي، وإنّما عملوا على تصنيف الجمل حسب إيقاعها.كما توجد بعض الظواهر الصوتية يعتمد عليه في التخريج النحوي. واللغة العربية الفصحى خلت من نظام الترقيم، ولكن تنغيم الجملة يفهم من المعنى دون الاتّكال على الكتابة ،وأثره يظهر على معاني الجمل فيتضح تباينها دون أن يطرأ تغيير على بنيتها.

وربطه الفارابي339هـ بانفعال النفس (ومن فصول النغم الفصول التي تسير بها دالة على انفعالات النفس، والانفعالات عوارض النفس مثل الرحمة و القسوة والحزن والخوف والطرب والغضب واللذة والأذى وأشباه هذه .) [2]

وهذا يدل على أنّ التنغيم في اللغة العربية قديم استخدمه القدامى فقد احتوت كتبهم عليه من ذلك ما ورد عن ابن جني (وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها ، وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليل، وهم يريدون: ليل طويل، وكأن هذا يدل حذفت فيه الصفة كما دل عليه الحال على موضعها، وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك .) [3]

كذلك الفراء 207هـ الذي تنبّه إلى ظاهرة التنغيم، واستعرضه في كتابه (معاني القرآن) لضبط بعض المسائل النحوية في إطار المنهج الصوتي (التنظيم من الحقائق الصوتية في اللغات المختلفة وهو مرتبط بالارتفاع والانخفاض في نطق الكلام نتيجة لدرجة توتر الوترين الصوتيين مما يؤدي إلى اختلاف الوقع السمعي .) [4]

فالإطار الصوتي هو الذي يحتوي سياق التنغيم، ويميز بين أنواع الصيغ المتصلة بالمستوى النحوي لأنّ الجمل العربية تقع في صيغ تنظيمية ذات أشكال محدودة، فالصورة التنغيمية التي تأتي به الجملة الاستفهامية وجملة النفي غير التي ترد عليه جملة الإثبات وهن يختلفن من حيث التنغيم عن الجملة المؤكدة.

قد استعمل النحاة أثناء تناولهم لبعض المسائل كالنداء والترنم وهو التنغيم بأداء القرآن وقد ذكره سيبويه (اعلم أن المندوب مدعو ولكنّه متفجّع عليه ،فإن شئت ألحقت في آخر الاسم الألف لأن الندبة ،كأنهم يترنمون فيها ، وإن شئت لم تلحق كما لم تلحق في النداء.) [5] و يتميّز بإلحاق الياء أو الواو في أوله ويستعمل للتوجع .ففي كلام سيبويه إشارة إلى التطريب و الترنّم ومدّ الصوت وما فيهم من معاني التنغيم فيجعل الجملة تحمل معنى الندبة فيها صورة التوجع عليه .

ولم يقتصر التنغيم على المستوى النحوي بل انتقل إلى المستوى البلاغي فهو يستعمل في أغراض كثيرة، ويفضل المواضع حسب ما يحتمله السياق، ويشكل ظاهرة في استقراء تراكيب الجمل ويوجّه طبيعة القراءة مع توضيح معانيها وأغراضهـــا كما يحكم على نوعية التغاير داخل المقام ، ويحـــدد الوجه الصحيح للمعنى إذا كان مناسبا للسياق.

والتنغيم يراعي التعبير بصوره المتعددة ومواقفه المتنوعة، وهذا يصدق على الكثير من المواطن التي تضمنتها البلاغة العربية نحو مسلك في توجيه القراءة ،وما توحي إليه من معان فتدركه الأذن ويحققه المقام للنص يحدد المعنى أو يوفق بين أكثر من معنى، فالجملة البلاغية تختلف نغماتها وفقا لأنواع التراكيب، وقد تميّزها الأدوات في بعض المواقف إلا أن التنغيم ضروري لرفع الاختلاف بغية الوصول إلى المقصود، وحين تحذف تلك الأدوات فطريقة الأداء بنغمة ملائمة للمقام تشعرنا بوجود أداة محذوفة .يسقط حرف النداء ويبقى النداء مفهوما ما بواسطة قرائن أخرى ويسقط حرف العطف ويبقى العطف مفهومها بقرينة النغمة .) [6]

فالتنغيم يؤمّن سلامة المعنى ويبعد اللّبس عنه، والمتأمل في بلاغة القرآن يشعر بتغاير طرق التعبير في القراءة، فالقراء تنبّهوا إلى الأسلوب التي يقتضيه السياق مع إدراك المعنى المراد منه، (تعددت رؤوس موجهي هذا الجانب القرائي، تبعا لتغاير نظرتهم إلى المقام والسياق الوارد فيه، فقد يختارون أحد الوجهين في بعض المواضع لتواتره و شيوعه في القراءة، ثم يلتمسون له وجها من المعنى يرونه مناسبا لسياقه.) [7]

ومن أهم المسائل التي تمثّل فيها التنغيم الإخبار والاستفهام فالتفريق والتوفيق بينهما يقوم على فهم السياق العام للنص، فهي ظاهرة شاعت في القراءات القرآنية.

أمّا التنغيم عند علماء التجويد القدامى فقد استثمروه من ملازمتهم للقرآن، وعرفوا مواطنه لكنّهم اختلفوا في مدلوله ، ويعدّ علماء التجويد أوّل من أدرك ظاهرة التنغيم وعرف أمثلتها ، فالقارئ له دور كبير في تحديد معنى الجملة في سياقه الصوتي عن طريق هذه الظاهرة الصوتية كالجمل الخبرية و الإنشائية. ففي القراءات القرآنية توجد نصوص واضحة في التنغيم وردت للتأثير و تغيير الآداء حسب المقام ، وهذا التغيير يطرأ على درجة الصوت في الكلام.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومن النصوص القديمة التي ارتبطت بظاهرة التنغيم، ومما احتوتها كتب علم التجويد ما أورده أبو العلاء الهمذاني العطار أثناء تحدّثه عن اللحن الخفيّ فقد ذكر الفرق بين النفي والإثبات والخبر والاستفهام ففيه تعريض وإشارة إلى موضوع التنغيم .

فالقراء وقفوا عند بعض التراكيب فاستقرؤوا النص وبتوجيه القراءة انطلاقا ما يمليه اللفظ داخل النسق أو كانوا يستعينون بالقرائن، وأدرك القراء أن طريقة أداء النصوص يحدد الوجه القرائي،فاختيار أحد الأسلوبين يعرف بالنغمة عند التلاوة.

ففي القرآن جمل كثيرة ينتقي القراء وجها يناسب السياق يميّز بها قراءته ، وفي بعض المواضع يميلون إلى التأويل.وتظهر أهميته في التمييز بين الجملة الخبرية والإنشائية خاصة الاستفهام ، فعند قوله تعالى: (**أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَىَ الْبَنِينَ**) الصافات 153 (قرأ الجمهور(أصطفى) بفتح الألف ، أي بأسلوب الاستفهام لما يحمل من أغراض التوبيخ والتهديد .ولعلّ النمط التنغيمي هو الذي قارب هذه القراءة مع جمل قرآنية أخرى مشابهة لها . فالسياق العام يؤكد الاستفهام الذي يستبعد إفكهم. فهذا الفونيم فوق التركيبي كان بمثابة علامة الترقيم.

وعند قوله تعالى : (**فَلَمّآ أَلْقُواْ قَالَ مُوسَىَ مَا جِئْتُمْ بِهِ السّحْرُ إِنّ اللّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنّ اللّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ**) يونس81 ، (قرأه أبو عمرو بالمد والهمـــز، على لفظ الاستفهام) [8] والاستفهام هنا على سبيل السخرية، وقد غيّر نمط التعبير فأحدث وقفا ترتّب عنه استفهـــام آخر(آسحر) فالتنغيم جليّ عند ما يتوقـــــف الكلام على (ما جئتم به) والابتداء على (آالسحر) .

وعند قوله تعالى: (قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَآؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظّالِمِينَ) يوسف 75 ففـــي هذه الآية التنغيم يتحكّم فيها ،و يوزّعها على جملتين لكن عناصر كل منهما مختلفة. فتكون الجملة الأولى : جزاؤه (من وجد في رحله و التنغيم هنا إثبات . والجملة الثانية : فهو جزاؤه و التنغيم هنا إثبات ، وقد تكون الجملة الأولى هي جزاؤه ؟ والتنغيم هنا تنغيم استفهام ، ومن وجد في رحله فهو جزاؤه و التنغيم هنا تنغيم إثبات .) [9]

فالآيات التي أشرنا إليها رغم أنّ الأداة محذوفة لكنّ المتلقي يدرك أسلوب الاستفهام عن طريق هذه الظاهرة الصوتية ، فالنظرة الأولى إلى الجملة تبدو خبرية،فطريقة نظمهـــــا يناسب الصيغ التنغيمية للجمل الاستفهامية (كذلك يقوم تنغيم الكلام المنطوق-وهو عنصر صوتي- بدور دلالي كبير يهدي إلى تفسير الجملة تفسيرا صحيحا مع تنوعه من نغمة الإثبات إلى الاستفهام.) [10] ورغم أنّ القدامى افتقروا إلى علامات الترقيم إلا أنّ هذه الظاهرة الصوتية كانت ضمانا من الوقوع في اللّبس.لهذا يلعب التنغيم دورا في توضيح بعض الأدوات .

و بالمقابل يوجد جمل في القرآن الكريم احتوت على قرينة استفهامية إلا أنّ التنغيم يجرّدها منه عند قوله تعالى: (**هَلْ أَتَىَ عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مّنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مّذْكُوراً**) الإنسان 1 ، تظهر الآية بأسلوب الاستفهام لكن عند قراءتها قراءة صحيحة تأخذ معنى آخر. فهذا التلوين الصوتي يعبّر عنها بمعنى آخر فيعطيها معناها الحقيقي و المتمثل في (قد) لأنّها دخلت على الجملة الفعلية.ومن القراء الذين قرؤوها بهذه الدلالة الكسائي(هل بمعنى قد قاله الكسائي والفراء وأبو عبيدة وحكي عن سيبويه هل بمعنى قد . قال هل تكون جحدا أو تكون خبرا فهذا من الخبر لأنّك تقول : هل أعطيتك تقرره بأنّك أعطيته والجحد تقول :هل يقدر أحد على مثل هذا.) [11]

وفلا يمكن إلغاء هذه الظاهرة التطريزية في توضيح الكلام ،وتجويد التركيب (فالجملة الاستفهامية خالية تماما من الأداة الصرفية ،ومع ذلك يحللها الدارسون ويذكرها أهلوها بسليقتهم جملة استفهامية ذات نمط خاص ، اعتمادا على لون موسيقاها الممثلة في التنغيم الصاعد في نهايتها.) [12]

كما يصلح الفونيم فوق القطعي للتعبير عن دلالة الأمر وهو مرتبط بتلاوة القارئ في التلوين لتحقيق

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

صيغة هذا الأسلوب فعند قوله تعالى: (ثُمّ صُبّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ذُقْ إِنّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) الدخان 48 . 49 ، فكلمة (ذق) يبدو معناها التكريم والتعظيم لكن التنغيم أظهر غرضها الحقيقي وهو التهكّم. فنبرة الصوت جعلت الكلمة أكثر التصاقا بالمعنى فأيّ انحراف في المفردة يؤدي إلى دلالة أخرى،فالتنغيم في (ذق) حمّلها شحنة حددت معناها التي أرادها الله من خطابه لأبي جهل و فيه إهانة واحتقار.

إنّ الصوت يرتفع عندها مع وقفة قصيرة ، أمّا الجملة الثانية (إنّك أنت العزيز الكريم)فينخفض الصوت. ويحسن قراءة (ذق) قراءة خاصة متميّزة عن بقية أفعال الأمر لأنّ فيها انقطاعا بين الجملتين بينها وبين إنّك.... كما أنّ الفعل مرتبط بالأكل لكنّه احتوى عنصر المفاجأة لما فيه من تهكّم.

فطبيعة السياق العام يلمّح إلى الأسلوب الأنسب في تقرير المعاني، فهذا التغاير في القراءة دفع ببعض الموجهين إلى المفاضلة بينها ، كذلك تظهر أهمية التنغيم في دراسة أسلوب الالتفات وهو أسلوب بلاغي يقصد به التنويع في الأسلوب لتحقيق المتعة للمتلقي ،و يأتي في الدفع السآمة والجمود عن نمطية الأداء وصرامة التركيب الواحد أو التخلص من القوالب الثابتة.فتعدد النغمات التي يخلقها الالتفات في تنويع المواضع من الغيبة إلى الخطاب أو من الخطاب إلى الغيبة، يزيد في البلاغة ويسدد مقاصدها.

فالتراث العربي احتوى ظاهرة التنغيم في اللفظ وتنبّه إلى أهميته علماء اللغة والتجويد وإن وظفوا مصلحات قريبة من دلالته، وأدركوا ارتباطه بمعاني الجمل. أمّا المحدثون فقد اختلفوا فيه فمنهم من نفى وجوده في التراث العربي القديم ومنهم محمد الأنطاكي (إن قواعد التنغيم في العربية قديما مجهولة تمام الآن النحاة لم يشيروا إلى شيء من ذلك في كتبهم .) [13]

ومن الذين أقرّوا بوجوده الدكتور أحمد كشك الذي أكّد على أنّ كتبهم تضمنت إشارات عامة استعرضوا فيها حقيقته كما أدركوا أهميته (قدامى العرب وإن لم يربطوا ظاهرة التنغيم بتفسير قضاياهم اللغوية أو هم إن تاه عنهم تسجيل قواعد لها، فإن ذلك لم يمنع من وجود خطرات ذكية لماحة يعطي إحساسا عميقا بأن رفض هذه الظاهرة تماما أمر غير وارد وإن لم يكن لها حاكم من القواعد.) [14] ومنهم من يرى أنه نقل عن الدرس الصوتي العربي، والبحث فيه ضئيل (ومعظم أمثلة التنغيم في العربية (ولهجاتها) من النوع غير التمييزي الذي يعكس إما خاصة لمنهجية أو عادة نطقية للأفراد، ولذا فإن تقعيده أمر يكاد يكون مستحيلا .) [15]

وقد اهتمّ المحدثون بالمنهج اللغوي الذي يدرس لجوانب الصوتية و الدلالية و غيرها .وكان التنغيم شديد الصلة باللغة ساهم في تحديد الدلالة و الحكم عليها، ويعدّ من أهم الدعائم للدرس الصوتي. ولكنّ من الغربيين من أنكر وجوده في العربية منهم برجشتراسر(فتعجب كلّ العجب من أنّ النحويين و المقرئين القدماء لم يذكروا النغمة و الضغط أصلا . غير أنّ أهل الأداء و التجويد خاصة رمزوا إلى ما يشبه النغمة .) [16]

وقد عدّت المدرسة الأمريكية التنغيم من الفونيمات الثانوية وعلى رأسهم بلومفيلد (الفونيم الثانوي عند هؤلاء جميعا يطلق على كلّ ظاهرة أو صفة صوتية ذات مغزى أو قيمة في الكلام المتّصل .) [17] بمعنى أنّه لا يعدّ عنصرا من عناصر صناعة الكلمة ، إنّما يبرز حين تتراصف الكلمة مع أخرى.
و بالمقابل هناك من رفض هذه التسمية، وآثر مصطلحا أكثر عمقا نظرا لما لهذا التلوين الصوتي من وظائف دلالية و منهم فيرث و وصفها بالظاهرة التطريزية . [18]

ورغم هذا فإنّ التنغيم قام بدور أساسي في النص القرآني ،فقد تكفّل بالنظم القرآني بهذا الدور الذي ساقه في أنماط لغوية تعكس قوة الإبداع وبراعة الإعجاز، كما أنّه ألمّ بمختلف العواطف والانفعالات النفسية التي انتابت الشخصيات التي تضمنها القرآن الكريم ،ويظهر ذلك عند القراء الذين برعوا في طريقة الأداء التي تستميل السامع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ب. النـــــــبر :

النبر تلوين صوتي يعمل على توضيح المقطع في الكلمة حتى يتميّز عن غيره فيدركه السمع،ويظهر بإضافة دفعة هوائية إلى الصوت أو أكثر في التركيب فيطفو هذا الصوت على غيره فيتحدد المقطع المنبور ،فالنبر موجود في اللغة العربية فقد ورد عند أهل اللغة و التجويد للدلالة على صوت الهمز في الغالب نبر.

فقد كانت للقدامى عناية بالنبر ، لكن لا يمكن تحديد مواطنه في اللهجات وإنّما يلتمس من خلال الظواهر اللغوية العامة، التي تنسب إلى تلك اللهجات (لا يمكننا أن نحدد النبر في اللهجات التاريخية عموما تحديدا دقيق، ذلك لأن لا نستطيع ادعاء وضوح سمعي في كلمات وصيغ وصلتنا مكتوبة، لكننا على أية حال نستطيع أن نقرر الحد الأدنى من نظم النبر في هذه اللهجات استنادا إلى الظواهر اللغوية العامة التي وصلت معززة إلى تلك اللهجات.)[19]

واختلف المحدثون حول إثبات وجود النبر عند القدامى ،وتوصّلوا إلى أنّ وظيفته تكمن في التمييز بين المعاني، وأنّهم درسوا اللهجات العربية القديمة من الجانب الأدائي الذي يظهر فيه الاختلاف في نبر الكلمات ،والعرب كانوا حريصين على الإبانة عن مقاصدهم وهذا لا يأتي إلاّ عن طريق هذا التلوين الصوتي فهو موجود في كل اللغات. فقد عدّ ظاهرة صوتية انفردت بها لهجة عن أخرى.

لا يقف الاختلاف عند موقع النبر، إنّما في نوعه فهو قد يأتي من الوتر الصوتي أو ارتفاعه(يأتي النبر من التوتر والعلو في الصوت اللذين يتصف بهما موقع معين من مواقع الكلام . [20]

تقاربت رؤية المحدثين مع القدامى في أنّ النبر هو الضغـــط على الحرف، لكنّ مكانه في المقطع المحدد في الكلمة هذه إضافة المحدثين (ونظّم المحدثون هذا المعنى حيث خصوه بالمقطع الذي هو عبارة عن: تأليف صوتي تبسيط تتكون منه، واحد أو أكثر كلمات اللغة، متفق مع إيقاع التنفس الطبيعي ومع نظـــــام اللغة في صوغ مفرداتها .) [21]

أمّا الغربيون فوقفوا من هذه الظاهرة الصوتية موقفين منهم من أقرّ بوجوده ككارل بروكلمان (في اللغة العربية القديمة يدخل نوع من النبر، تغلب عليه الموسيقية ،ويتوقّف على كمية المقطع، فإنّه يسير من مؤخّرة الكلمة نحو مقدمتها حتى يقابل مقطعا طويلا فيقف عنده، فإذا لم يكن في الكلمة مقطع طويل فإنّ النبر يقع على الأول منها .) [22] فهذا الرجل له اطّلاع واسع باللغات الإنسانية و خاصة التراث العربي والإسلامي ما جعله يصرح به.و بالمقابل نجد من يتحفّظ بوجوده منهم برجشتراسر (إنّ النبر ظاهرة نادرة في اللغة العربية الفصحى ، عكس اللهجات الغربية التي يكثر فيها هذه الظاهرة.) [23]

فالكلام يتشكّل من ألفاظ التي هي عبارة عن أصوات منسجمة تختلف فيما بينها قوة وضعفا، وفق موضعها والمتكلم لا يؤثر لضغط على مقطع متميز وهذا هو موقع النبر (إنّ المقاطع تتفاوت فيما بينها في النطق قوة وضعفا فالصوت أو المقطع المنشور ينطق ببذل طاقة أكثر نسبيا ويتطلب من أعضاء النطق مجهود أشد.) [24]

واللغات تختلف في مواقع النبر في الكلمة، فبعضها تخضع لقانون خاص بمواضع النبر كاللغة الفرنسية لأنّها ذات نبر ثابتا ولا تكون النبر في الكلمة إنّما على المقطع الأخير في المجموعة، ومنها لا يكاد يخضع لقاعدة محددة كالإنجليزية (والإنجليزية لا تقنع بنير واحد على الكلمة، فالكلمات الطويلة والكلمات المركبة تملك غالبا نبرين أو أكثر.) [25]

أما اللغة العربية الفصحى فإنّ أبحاث المحدثين امتدت إلى تحديد مواضع النبر فمن المستشرقين كجان كانتينو الذي أبان عنه في قاعدة توصل إليها برأيه (يقع النبر على أول مقطع طويل) حين نفذ المقاطع ابتداء من نهاية الكلمة، فإذا لم تشتمل الكلمة على مقطع طويل وقع النبر على المقطع الأول منها، ولا يقع النبر على الحركات

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الطويلة في نهاية الكلمة. [26]

وقد علّق عبد الصبور شاهين على هذا الرأي بقوله، (ويبدوا لنا أنّ كانتينو صاغ هذه القاعدة في وصف نبر الكلمة وصلا ووقفا.) [27]

النبر في اللغة العربية ظاهرة صوتية دقيقة تبرز في الأداء وقف عندها اللغويون لأنّه موضّح لأحد مقاطع الكلمة (و المرء حين ينطق بلغته تميل بعادته إلى الضغط على مقطع خاص من كل كلمة ؛ ليجعله بارزا واضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة . وهذا الضغط هو الذي نسميه بالنبر.) [28] فالصوت يكون أبين وأطول ، كما أنّ المقاطع تختلف في درجة النطق.

ويلعب النبر دورا كبيرا في تحديد المعنى و هذا ما توصّل إليه القدامى خاصة في دراستهم البلاغية على وجه الخصوص، وتوزيعهم الطلب إلى دلالات كثيرة، وتفصيل قسيم كل دلالة إلى معان إضافية تضاف إلى النسق اللغوي المحدد.

فالمقطع ليس جديدا على المحدثين بل تناوله القدماء ولكن بمصطلحات مغايرة يقول الفارابي(وكل حرف غير مصوت أي صامت أتبع بمصوت قصير (حركة قصيرة) قرن به، فإنه يسمى " المقطع القصير" والعرب يسمونه الحرف المتحرك، من قبل أنهم يسمون المصونات القصيرة حركات، وكل حرف لم يتبع بمصوت طويل فإننا نسميه المقطع الطويل .) [29] فقد توصّل المحدثون إلى موقع النبر في الكلمة العربية من خلال النظام المقطعي.

للنبر وظيفة دلالية من الناحية المعنوية على مستوى الكلمة فهو ينظّـــم التباين الدلالي حسب الكلمة المنبورة، فإن وظيفته تتمثل في الإفصاح عن الدلالة السياقية ، وتبيان التباين الدلالي في السياق، وذلك حسب الكلمة المنبورة. إنّه يعطي السياق إيقاعا خاصا من يزخر اللغة موسيقى تميزها عن اللغات الأخرى من خلال الاستماع، فالنبر نظام قائم على قواعد حسب ما يطلبه السياق يتنبّه إليه السامع عند قراءة القرآن الكريم.

فلا تقف وظيفته في اللغة العربية عند الإيقاع (ولا شك أن الإيقاع إذا كان يعطي للغة موسيقاها الخاصة فإنه لا يحدد معنى وظيفيا ولا معجميا ولا دلاليا في السياق الكلامي ولو أن وظيفته اقتصرت على إعطاء الكلام هناك الإيقاع الخاص ما استطعنا أن نربط ربطا مباشرا بين النبر وبين المعنى .) [30]

إنّما هناك وظيفة أخرى وهي قيمته الصوتية في إبراز الاختلاف الدلالي داخل السياق.فهو يذلل المعنى ويرفع اللّبس عن الكلمة حتى لا تتداخل مع غيرها أو تضيّع طرفا من بنيتها.

فالنبر يتغير نتيجة لبعض التغيرات الصوتية التي تلحق الكلمة أو الكلمتين فقد يمتد المقطع الكلامي من نهاية الكلمة إلى بداية الكلمة المجاورة، فقد يقع اللّبس إذا لم تكن هناك قرينة لفظية،.

وهذا النوع يحتاج في بعض الأحيان إلى ظواهر مما يفسّر في البنية المقطعية (كذلك يتطلب السياق الاستعمالي أحيانا بعض الظواهر الموقعية مثل هاء السكت والإشباع والندبة وإطلاق القافية وغير ذلك من يأتي عند تغيير في البنية المقطعية.) [31]

فقد اهتّم به أهل اللغة لما فيه من وقع سمعي وأثر صوتي في تحسين اللفظ وتأكيد المعنى، فهو يعطي النص تماسكا وقوّة. وجد فيه العلماء قديما وسيلة لتأصيل التراث اللغوي. يرد في النص لدوافع سياقية وللتنويع في أساليب التعبير،زاخر بالمعاني النفسية تحمل أسرارا جمالية .إنّه من أعمق الظواهر اللغوية في النص القرآني يؤدي دورا متميزا يلغي المعاني الزائدة ويعزّز مل يقتضيه الحال.

فالنبر ظاهرة صوتية مهمّة في قراءة القرآن الكريم فهو يميّز المستوى اللغوي، ويوفّر الكلمة أو الجملة أداء

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مميزا، كما تنبّه القارئ على وجوب الضغط على بعض الحروف لتكون واضحة.

وتركه يعني الإخلال بنظام النص القرائي،إنّه يحدّد الدلالة والغاية مع مراعاة الأحكام اللغوية .فهو يمثل جانبا متميّزا من علم الأداء في إبانة الكلام على صورة توضّح اللفظ وتكشف عن المعنى،ويشكّل جوهر الجودة للنصّ.فالالتزام به سبيل إلى الاستمتاع والتدبر.

إنّه ظاهرة صوتية وصورة نطقية تؤخذ من قراءة القرآن، فالنغمات المترتبة عنه مختلفة تؤدّي معاني متباينة تتفق مع وجوه التفسير ودقّة اللغة.

وفي القرآن، شواهد كثيرة وقف القراء من خلاله على المعنى الحقيقـــــي من ذلك قوله تعالى: (فَسَقَىَ لَهُمَا) القصص 24 فعند القراءة يجب تمييز صوت الفاء ،و عدم دفع الصوت على عليه لأنّه يحوّل المعنى إلى الفسوق. فالقراءة السليمة توضّح الدلالة، وتحدّد الترتيب المقطعي في الكلمة لمعرفة أصلها ،و لذا يقع النبر على السين باعتباره فاء الفعل الثلاثي الماضي.

وعند قوله تعالى: (**فَإِذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ**) الحجر 29 ، فعند نبر الفاء يكون من فقع العين ،ولكن نبر الصوت الثاني يكون من الإلقاء فالفاء عبارة عن مقطع قصير ولا يؤهلها أن تنبر، فهي لا تتحمل الضغـــــط فيضيع المعنى للكلمة التي دخلـــــت عليها. قوله تعالى : (**فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ**) الحديد 16 ، فكلمة قست اتّصلت بها الفاء فلا تقبل النبر إنّما النبر يقع على المقطع الثاني ليتّفق مع المعنى الصحيح وهو القسوة ، وإلا أصبح من الفقس . قال تعالى: (**وَمَنْ أَرَادَ الاَخِرَةَ وَسَعَىَ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) الإسراء19، ولو نطق الفعل سعى بدون نبر الصامت السين كان بمعنى الاتساع في حين هو من السعي أي السير،فالواو زائد سابق فلا يمكن الضغط عليه فنبره يغيّب الدلالة الحقيقية.ما نستخلصه مما مضى هو أنّ الفعل الثلاثي المجرد منبوره مقطعه الأول .أمّا إذا لم ينته بهذين المقطعين (ص ح ح ص) أو (ص ح ص ص) فإنّ النبر يقع على ما قبل الأخير، ولكنّه لا يكون من النوع القصير ولا يسبق بمثله.

أمّا مابين الكلمتين فإذا لم يراع تصبح كلمة واحدة فعند قوله تعالى : (**أُوْلَئِكَ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**) الأعراف 179 ، فإذا توقفنا عند (بل هم) كلّ كلمة تشكّل كتلة صوتية، وتنفردان بفونيم فوق المقطعي ألا وهو النبر إنّه يحدد بداية الكلمة ونهايتها. فإذا لم يحسن النطق بهما عن طريق هذا التلوين الصوتي ارتبطت الكلمتان وصارتا (بلهم)،فتحوّلت الدلالة إلى البله أي الغفلة من الشر بدلا من حرف العطف وضمير المنفصل.

وعند قوله تعالى: (**وَالّذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنّ اللّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**) العنكبوت 69 ، فسوء توظيف هذا الفونيم فوق التركيبي يزيغ المعنى فتتداخل اللام المزحلقة للتوكيد مع (مع) الظرفية فموطن النبر العين بدلا من الصوت الزائد اللام،و عندها يتّضح المعنى المعية وليس اللمعان.

وعند قوله تعالى : (**رَبّنَآ آتِنَا مِن لّدُنكَ رَحْمَةً**) الكهف 10 ، فكلمة ربّنا كلمة واحدة ولكن سوء النطق يجعلها كلمتين (رب،نا) ، فالكلمة هي موقع النبر (وسبب ذلك أنّ القارئ دفع الصوت على(ربّ) وعاد دفعه مرة أخرى على (ن) فجعلها كلمتين.) [32]

كذلك إهمال النبر في نطق الحرف نطقا صحيحا يؤول المعنى فعند قوله تعالى (**لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلاَ هُمْ مّنّا يُصْحَبُونَ**) الأنبياء43 ، فعدم الضغط على الصاد تصبح الكلمة (يسحبون) فيتحول المعنى من ينصرون إلى يجرون على الوجه.

وهكذا نجد أنّ التنغيم و النبر يفسّران لنا عالم الجمال في النص القرآني والموروث اللغوي، ونقبلها

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

باعتبارها وصفا لإحدى جوانب الإعجاز القرآني، و الإبداع العربي،حار فيهما العقل في السياق الذي وردا فيه فهما يفيضان بأسمى طرق التعبير ،إنّهما تبحثان عن حقيقة عميقة في طيّات الحروف والكلمات و الجمل.

فإدراك الجمال فيهما دليل على صفة الكمال لله الذي جعل الأوائل والمتأخرين بملكتهم، يتذوقون قيمتهما الصوتيةّ فوجدوا الجاذبية للاهتمام بالتفسير والتحليل .

فالتنغيم نلمس فيه إيحاءات سامية تنبعثمن عنصرين سمو النص القرآني، والمشاركة الوجدانية لدى المتلقي الذي يجد لمسات دقيقة ،ومنهجا منفردا يتجلّى في الوضوح وصدق التصوير. فالتنغيم حقيقة أدركها القدامى في اللغة ،و عرفوا قيمته في تأدية وظيفته الأدبية تكمن في كيفية النطق، ووظيفة دلالية تتجلّى في معرفة المعاني المتباينة.

أمّا النبر فإنّ أهميته تظهر في إزالة اللّبس و تمييز الزائد في الكلمة عمّا كان أصلا فيها. والتفريق بين مصطلحين الضغط والهمز، مع التركيز على نظام المقاطع.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

هوامش البحـــــث :

1. إبراهيم أنيس. الأصوات اللغوية. مكتبة أنجلو. ط2، القاهـــــــــــــرة، 1952. ص: 44.
2. الفارابي. كتاب الموسيقى الكبير كتاب الموسيقــــى. تحقيق: غطاس عبد الملك، ص: 1071.
3. ابن جني. الخصائص. تحقيـــــق: علي النجار، دار الكتاب العربي، بيروت. 2/ 370. 371.
4. محمود فهمي حجازي. مدخل إلى علم اللغة. دار قبـــــــاء للطباعة، القاهرة. ص: 82.
5. سيبويه. الكتاب تحقيق: عبد السلام هارون، عالـم الكتب، بيروت، ط 3، 1983، 2\221.
6. تمام حسان. اللغـة معناها ومبناهـــــــا. دار الثقافة، المغرب، طبعة 1994. ص: 288.
7. أحمد سعد محمد. التوجيـه البلاغي للقراءات القرآنية. مكتبـــة الآداب، القاهرة، ط1، 1418هـ. ص: 221.
8. مكي القيسي. الكشـــف عن وجوه القـراءات السبع تحقيـــق: سعيد الأفغاني مؤسســـة الرسالة بيروت ط1418هـ، 1/521.
9. محمد حماسة. النحو والدلالة. دار الشروق، القاهرة، ط1، 1420هـ، ص: 122.
10. نفس المرجع. ص: 17.
11. القرطـــبي. الجامع لأحكــــام القر آن. تحقيق: عبد العليـــــم البردوني، دار الشعـــب، مصر، ط21980م، 119-19/118.
12. كمال بشر. علم الأصـــــــــــــوات. دار غريب، القاهرة، 2000م، ص: 545.
13. محمد الأنطاكي. دراسات في فقه اللغة. دار الشروق العربي، بيروت، ط4. ص: 197.
14. نفس المرجع. ص: 58-57.
15. أحمد عمر مختار. دراسة الصوت العربي. عالم الكتب، القاهـــــــــرة، ط4، 1427هـ. ، ص: 366.
16. برجشتراسر. التطور النحوي للغة العربية. ترجمة: عبد التواب رمضان، مكتبة الخانجي، 1402هـ. ص: 46.
17. كمال بشر. علم الأصوا ت. ص، 496.
18. فوق المقطعية: يقصد بها تلك المتغيرات الصوتية التي تصاحب الوحدات الكلامية التي تساهم في إنتاج المعنى.
19. غالب فاضل المطلبي. لهجة تميم و أثرها في العربية. دار الحرية للطباعـــة، بغداد، 1398هـ.، ص: 214.
20. تمام حسان. اللغة العربية معناها ومبناهـــــــــــــا. ص: 171.
21. عبد الصبور شاهين. القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. ص: 25.
22. بروكلمان. فقه اللغة السامية. ترجمة رمضان عبد التواب، مطبوعات جامعة الرياض. ص: 45.
23. برجشتاسر. التطور النحـــــــــــــــــــــــوي للغة العربية. ص: 46. 47.
24. محمد مهدي. علم الأصـــــــــوات اللغوية. عالم الكتب، لبنان، ط1411هـ. ، ص: 122.
25. نفس المرجع. ص: 243.
26. كمال بشر. دراسات في علم اللغة العربية. دار المعارف، مصر، ط9، 1986م. ص: 119 - 120.
27. عبد الصبور شاهين. القــــــــــراءات القرآنية، ص: 27.
28. إبراهيم أنيس. الأصـــــــــــــوات اللغوية. ص: 170.
29. نقلا عن كتاب علم الأصـــــوات لكمال بشر. ص 506 - 507.
30. تمام حســـــــان. اللغة العربية معناها ومبناها. ص: 307.
31. تمام حســـــــان. اللغة العربية معناها ومبناها، ص: 306.
32. نبيل بن عبد الحميد. الجامع الكبير في علم التجويد. الفاروق الحديثة، القاهرة، ط1، 1426هـ. ص: 333.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com